مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
147 (2)- 2023: 22-39

Damascus University Journal of Historical Studies
147 (2) - 2023 : 22 - 39

قادش معركة فاصلة في تاريخ سوريّة القديم (1285 ق. م)

ثابت غانم [1] **د. عيد مرعي** [2]

1 تاريخ قديم– كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة دمشق.

2 تاريخ قديم –كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة دمشق.

كانت سوريّة عبر العصور هدفاً للطامعين من القوى المحيطة، وذلك لأهميّة موقعها الجغرافي والاستراتيجي، وهذا ما جعل تلك القوى تنقل ساحة الصراع فيما بينها إلى داخل العمق السوري، ومن أهم المعارك التي حدثت داخل الأراضي السوريّة معركة قادش التي دارت ما بين الامبراطوريتين المصريّة بقيادة رمسيس الثاني ملك مصر، والحثيّة بقيادة مواتللي ملك الحثيين بالقرب من مدينة قادش، وتعتبر معركة قادش من المعارك الفاصلة في تاريخ سوريّة القديم من حيث النتائج التي تمخضت عنها وغيرت في حياة الممالك السوريّة بتقسيم ولائهم مابين الدولتين المتحاربتين في تلك المعركة فكانت مدينة قادش حداً فاصلا، حيث بسطت الدولة الحثيّة مناطق نفوذها على الامارات السوريّة الواقعة من قادش وإلى الشمال، وبسطت الامبراطوريّة المصريّة نفوذها على المناطق الواقعة جنوب قادش، وما يميز تلك المعركة التكتيكات العسكريّة التي استخدمت فيها وكثرة أعداد وعدة الجيوش المتحاربة، كما واستخدمت فيها الجاسوسيّة العسكريّة لأول مرّة في التّاريخ اضافة إلى صعوبة تحديد هويّة المنتصر فيها فالنصوص الحثيّة تؤكد انتصار الحثيين، أما النقوش المصريّة تؤكد انتصار المصريين، وفي الحقيقة لم تكن نتيجة المعركة نصراً مدوياً لكلا الفريقين بل انسحاباً يحفظ ماء الوجه لكليهما، هذا ما أكدته معاهدة الصلح التي وقعت بعد معركة قادش ب 15 عاماً والتي ابقت على مناطق نفوذ الدولتين المتحاربتين داخل الأراضي السوريّة كما كانت عند وقف الأعمال القتاليّة في
المعركة، ومن الملفت للنظر حسن العلاقات التي جمعت فيما بعد بين طرفي الصراع في معركة قادش (عدو الأمس صديق اليوم)، وتتويجاً لحسن العلاقات وقعت معاهدة الصلح فيما بينهما والتي تعتبر أقدم معاهدة موثقة في التاريخ، وكللت المعاهدة بزواج سياسي حيث قدم حاتوشيلي الثالث ملك الحثيين ابنته زوجة للفرعون المصري رمسيس الثاني، مما انعكست على واقع الممالك السورية التي انتعشت
اقتصاديا وراجت التجارة السورية وازدهرت نتيجة لتلك لمعاهدة.

الكلمات المفتاحية: قادش– المملكة الحثيّة– الامبراطوريّة المصريّة– رمسيس الثاني–حاتوشيلي الثالث– معاهدة الصلح– الجاسوسيّة العسكريّة– الممالك السوريّة.

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Qadesh is a definitive battle in the ancient Syrian history.

Thabet Kanem [3] **Dr. Eid Marae** [4]

[3] Ancient History - College of Arts and Humanities - University of Damascus.
[4] Ancient History - College of Arts and Humanities - University of Damascus.

Abstract

Syria has always been an in of being envaded by enemies , because of its crucial location . One of the most important battles which took place in Syria was Qadesh between the Egyption Empire and the Heteet Empire. This battle happened in around 1275BC. Qadesh which is a City on the western bank of the Orontes river. this battle is considered and of the most important battles in the ancient history of Syria. So Qadesh separated between those Empires. What characterizes this battle is the military techniques which were used and the big armies involved in the conflict and were military spying used for the first time in the history. Moreover it was very difficult to knon whos the winner. 15 years later after the end of the battle there was a treaty as an announce of peace and the end of war. This treaty had its good effects on the Syrian kingdoms where you could see the economic prosperity and trade spread as a result.

Key Word:
Military Spying - The Egyption Empire – Qadesh - Syrian Kingdoms – Treaty –Ramseesii- Heteet Kingdom.

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under

a CC BY- NC-SA

المقدمة :

تميزت شعوب المشرق القديم بتشابك العلاقات وتضارب المصالح حتى وصلت لقيام الحروب فيما بينها، وكانت سورية القديمة مسرحاً لأهمها وذلك لموقعها الجغرافي المميّز بين قارات العالم القديم، وغناها بالموارد الطبيعية وإشرافها وتحكمها بالطرق التجارية، فكان لكل دولة من دول الجوار مسوغاتها لبسط هيمنتها على سورية القديمة، وهذا ما جعل سورية نتيجةً لموقعها الجغرافي بالرغم من مساحتها الصغيرة تلعب دوراً على المستوى العالمي لم تقم به دولٌ كبيرة المساحة لأنها لا تمتلك مثل ذلك الموقع، إضافة لغنى السهول الساحلية في سورية بالمنتجات الزراعية والموارد الغابية، والموانئ البحرية التي تربط المراكز الرافدية مع العالم الخارج عبر البحر المتوسط، لذلك كان الصراع على سورية ما بين الإمبراطوريتين الحثية والمصرية نتيجة حتمية بسبب الظروف التي مرت بها كلّ منهما. تقدم للنفوذ الحثي في الأراضي السورية مقابل تراجع وتراخٍ للنفوذ المصري فيها، ثم الصحوة المصرية بزمن الأسرة التاسعة عشرة (1309-1194ق. م) بعد أن كان الحثيون قد تمركزوا وسيطروا على أغلب مناطق نفوذها في سورية القديمة، فكان لا بد من وقوع الصدام فيما بينهما لكي يحافظ الحثيون على مكاسبهم التي حصلوا عليها في فترة الضعف المصرية، أما مصر فوجدت أنه من المناسب استعادة مناطق نفوذها السابقة، وبلغ الصراع أوجه ما بين الإمبراطوريتين في معركة قادش[1] 1285 ق. م.

التي بقيت مثاراً للجدل حول تحديد هوية المنتصر فيها ،فالمصادر الحثية تؤكد انتصار الحثيين بقيادة ملكهم موواتالي(Muwatalli 1315-1280ق. م)، أما النقوش المصرية القديمة التي غطت جدران معابدهم تؤكد انتصار المصريين بقيادة ملكهم رعمسيس الثاني (Ramses II 1290-1224ق. م)، ثم جائت معاهدة الصلح التي وقعت بعد خمسة عشر عاماً من معركة قادش بين الملك الحثي حاتوشيلي الثالثHattoosil III (1273 –1251 ق. م) والفرعون المصري رعمسيس الثاني التي أنهت الحرب بينهما.

على جدران معبد أبو سمبل في النوبة ومعبدي الأقصر والكرنك في طيبة وجدت نقوش هيروغليفية تعود لعهد الملك رعمسيس الثاني مصحوبة بمشاهد مصورة تروي مراحل معركة قادش (حسب وجهة النظر المصرية)، حيث ذكرت تلك النقوش تحديداً لتاريخ المعركة جاء فيها: "... أ نه في اليوم التاسع من الشهر الثالث لصيف السنة الخامسة في عهد جلالته ... ملك مصر العليا والسفلى..."(Gardiner: 1960 .p.7).

1- السبب المباشر للمعركة:

استطاع الملك الحثي شوبيلوليوما (Suppiluliuma 1380-1346ق. م) أن يستولي على مناطق واسعة في شمال سوريّة وكان حريصاً ألاّ يقترب من مناطق النفوذ المصريّة، وذلك للعلاقات الجيدة التي كانت تربطه في البداية مع الفراعنة، ونستدل على حسن العلاقات المصرية الحثية من خلال أرشيف العمارنة[2] فهنالك الرسالة EA41 المرسلة

من العاهل الحثي شوبيلوليوما إلى الفرعون أمنحوتب الرابع Amenhoteplllll) (1364- 1347ق.م) (اخناتون)، وجاء فيها "يقول الشمش شوبيلوليوما: الملك العظيم، ملك حثي، يقول لنيموريا ملك مصر أخي... لنقم علاقات صداقة فيما

[1] - قادش: (Qadesh - Qidshu) مملكة قادش (قيدشو) تقع مدينة قادش على نهر العاصي الجزء الجنوبي من الوادي وهي تل النبي مند حالياً. وذكرت قادش منذ عهد تحوتحمس الثالث 1470-1436 ق م عندما قاد حاكمها تحالفاً للأمراء السوريين والفلسطينيين حاربوا تحوتحمس الثالث في معركة مجدو عام 1468 قبل الميلاد.

[2] – رسائل العمارنة: مجموعة من المراسلات الدولية المرسلة من وإلى فراعنة مصر من قبل ملوك وأمراء الشرق الأدنى القديم تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتعتبر من أهم الوثائق المسمارية ومصدراً لكتابة تاريخ الشرق القديم وبلغ عددها 283 رسالة، وجدت في قرية تل العمارنة في مصر. أنظر فاروق مراسلات العمارنة الدولية وثائق مسمارية من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، دمشق 2010

بيننا ... دعنا نتعاون فيما بيننا..."(Moran:1987.p210)، لكن العلاقة الجيدة مع الحثيين سرعان ما انهارت عندما سيطرة مصر على مملكة أمورو (Amurru)[3] في سورية وجعل ملكها يدفع الجزية للفرعون، فاعتبرت المملكة الحثية هذه السيطرة تهديداً لمصالحها، وذلك لما تتمتع به مملكة أمورو من أهمية لاستقرار النفوذ الحثي في سورية القديمة، فمنذ عهد الملك الحثي شوبيلوليوما فرضت على مملكة أمورو معاهدة تتجدد مع وصول أي ملك آموري للحكم، لذلك لم يثور ملوك الآمورين على السلطة الحثية كما فعل غيرهم، بل كانوا دائماً يقدمون الدعم العسكري للمملكة الحثية ضد المتمردين من حكام سورية القديمة، وذلك تنفيذاً لبنود المعاهدة، فجاء بالمعاهدة الموقعة ما بين الملك الحثي مورشيلي الثاني (MoursilII1315.1345 ق.م) وملك الآموريون دوبي تيشوب (Dupyteshup 1280.1313ق.م) تأكيداً على الدعم العسكري الآموري للحثيين "ستصادق أصدقائي وستقاتل أعدائي، وإذا قاتلتُ في أرض الحوريين والمصريين وبعض المناطق الثائرة ضدي (ستقاتل)"، وعندما آلت السلطة في مملكة أمورو إلى بينتشينا(Benteshina 1270.1290ق.م)، وبعد تعرضه لأول هجوم مصري يتخلى عن المعاهدات السابقة الموقعة مع الحثيين بزمن أسلافه وينحاز لمصر، فاعتبر الملك الحثي موواتالي ذلك خيانة لأن الملك الآموري قد حنث بالقسم الذي حافظ عليه أسلافه ولم يخرج أحدهم عن طاعة الحثيين، فجاء تأكيد القسم وضرورة الحفاظ عليه في المعاهدة الموقعة سابقاً بزمن العاهل الحثي مورشيلي الثاني مع دوبي تيشوب "... وطالما ملك مصر [معاد لجلالتي] فإن ترسل رسولك خفية إليه [أو تصير معادياً] لملك حثي أو أن تحاول أن تتخلص من سلطان ملك حثي لتصبح تابعاً لملك مصر، تكن أنت يا دوبي تيشوب قد حنثت بالقسم..." (pritchard:1969.p.203)" والحنث بالقسم يستوجب على العاهل الحثي موواتالي إعلان الحرب لمعاقبة بنيتشينا ليكون عبرة لغيره من الحكام والملوك الذين يفكرون بتبديل ولائهم للحثيين.

2 - الاستعداد لمعركة قادش: أيقن العاهل الحثي موواتالي أن الاصطدام المسلح مع مصر لا مفر منه وخاصةً بعد أن بدأت تستعيد مكانتها السابقة، فبدأ باتخاذ خطوات ملموسة للتهيئة للمعركة القادمة، كنقل مقر قيادته من العاصمة الحثية خاتوشا إلى منطقة تكون أقرب على سورية مسرح الأحداث العسكرية فاتخذ من مدينة داتّاشّا في جنوب أسيا الصغرى مقراً لحكمه(عبد الله: 2004 ص 546). ثم حشد كل إمكانيات مملكته وحلفائه العسكرية والمادية استعداداً للمواجهة المرتقبة مع الفراعنة، وحسب التقاليد المتبعة عند ملوك ذلك العصر ولكي يكسب دعم الآلهة توجه الملك الحثي إلى الآلهة في عاصمته خاتوشا لكي يطلب دعمها ومباركتها لحربه القادمة، وأقسم لها أنه إذا ما انتصر على عدوته مصر سوف يكرس لها العطايا الثمينة ويمنحها أجزاء من غنائمه، ونستدل على ذلك من خلال النقش الذي تركه موواتالي وجاء فيه "... في أي حملة يقودها جلالتنا، أه يا ألهتي لو أيدتموني فغزوت أمورو، سواء بقوة السلاح، أو... وأفلحت في أسر ملكها، فسوف أغدق عليكم بسخاء، آه يا ألهتي." (كتشن: 1997، ص 85).

ثم جمع وحدات قتالية من أكثر من ستَّ عشرةَ مقاطعة ومملكة حليفة، حيث قدر عدد جيشه بـ 3500 مركبةً حربية وفرقتين من المشاة قوامهما نحو 37 ألف مقاتل، وقد قيل انه أعظم جيش جمعته الإمبراطورية الحثية في تاريخها، وكان سلاح المركبات الحربية هو الأهم فالعربة الحثية تحوي ثلاثة مقاتلين حاملين كل أنواع السلاح المعروف آنذاك (Gardiner:1960.p.7)، وهذا ما جعل حركتها بطيئة وثقيلة وتتألف من حامل قوس وحامل رمح وسائق، أما تسليح المشاة

فكان السيف والرمح، كما واستخدم الحثيون في جيشهم المرتزقة من البدو الرحّل أو ممن لا أرض لهم من جميع بلاد آسيا الصغرى، وكان يؤمّن تموين الجيش من المخازن الملكية ومن الغنائم في الحروب، والملك الحثي يتقدم الجيوش، ويتولى

القيادة بنفسه حاطوم ونبيل. (1963. ص 271). ومن خلال نقش الكرنك الذي يتحدث عن معركة قادش نستنتج أن الملك الحثي استعمل الفضة لشراء الجنود وتجنيدهم في المعركة حيث جاء في النقش: "وقد جاء مع الناس رؤساؤهم وكلٌ رئيس مع فرق المشاة الخاصة به وموكبه، بحيث كانوا من عددهم الهائل قد غطوا الجبال والأودية مثل الجراد في أوج موسمها، ولم يُبقِ (الملك الحثي) أي غرام من الفضة في بلده،... وأعطاها لكل البلدان الأجنبية لكي تنظمُ له في المعركة" (Mark,J.2012.p65).

وبالمقابل راح الفرعون المصري رعمسيس الثاني بعد تأمين طرق مواصلاته، واستعادة أمورو في حملته الأولى، يعد العدة للّقاء المرتقب مع الحثيين (محمد علي: 2005م، ص112)، وخاصة أنه يعلم أن الملك الحثي لن يسكت عن خروج أمورو من قبضته، فعمل الفرعون على إنشاء عاصمة جديدة باسم بر_رمسيس (Per_ Ramsses) وتعني دار رعميس محبوب آمون(عيد: 2005، ص 213) مكان تانيس القديمة على دلتا النيل، وتشييدها بهذا المكان ضرورة استراتيجية ودفاعية لتكون قريبة من مسرح الأحداث في سورية، وبذلك يسمح لها بوجود احتياطي عسكري كبير فيها يمكن أن ينجد الحاميات الشمالية، والقوات المتقدمة بسرعة إذا ما اقتضت الحاجة، ثم عمل على تشكيل جيش مكوّن من أربع فرق مقاتلة سميت بأسماء الآلهة المصرية (رع، أمون، بتاح، سيت،) ويبلغ عدد القوات فيها جميعاً حوالي(20) ألف مقاتل، إضافة إلى قوات خاصة كانت تعسكر في بلاد أمورو، ووحدات للجيش المصري كانت تعسكر في المراكز المصرية في مناطق من سورية وفلسطين. مع القوات المصرية الداعمة التي كانت تحمي مؤخرة الجيش من هجوم القبائل البدوية (أحمد: 1982 ، ص 244)، وكانت كل فرقة بمثابة جيش مستقل، ومن الواضح أن كل فرقة من الفرق الأربعة كانت منفصلة عن بعضها البعض بشكل واضح، وكل جيش يمشي خلف الآخر باستقلالية كاملة لأن كل جيش كان يمثل مقاتلين مدينة من مدن مصر (Gardiner: 1960.p.6)، وكل جيش فيه من المشاة و العربات القتالية التي كانت مزودة بمقاتلين اثنين مما أعطاها السرعة وخفة الحركة والتي يبلغ عددها في الجيوش الأربعة حوالي(1000) مركبة حربية وهذا يعني أن لكل جيش (250) عربة قتالية، وكذلك حوى الجيش المصري كغريمه الحثي القوات المرتزقة بين صفوفه من ليبيين وفينقيين، وشرادنة[3] وقد تحدث النص المصري لمعركة قادش عن التجهيز والإعداد للحرب فجاء فيه "... بعد أن أعدَّ جلالته فيالقه وعرباته القتالية، والشرادنة الذين جندهم جلالته بعد أن انتصر عليهم، والجميع في السلاح والعدة.. (كتشن:1997، ص 86)، ثم أعطاهم أمر المسير.

3 – سير الحملة: دعا رعمسيس أركان حربه للتشاور ووضع مخطط لسير حملته، وانتهى الاجتماع بعد التوصل إلى أن الفرعون سيقود الجزء الأساسي من الجيش وهو فرقة أمون وسيسلك الطريق البري من مصر إلى جنوب سورية حتى يصل إلى قادش، بينما تسلك الفرق الثلاثة المتبقية رع _ بتاح _ سيت طريق الساحل الفينيقي ثم تتجه نحو الداخل باتجاه الشرق لتلاقي فرقة أمون التي يقودها الفرعون، وحدد اللقاء بنفس اليوم حيث تتجمع فيه الفرق الأربعة جنوب قادش قبل الهجوم على المدينة، فجاء في النقش المصري عن سير الحملة"... شرحت لهم الخطة، ثم يمّمَ جلالته شطر الشمال بقواته وقد بدأ المسير بشكل جيد، في السنة الخامسة، في شهر الصيف الثاني، اليوم التاسع، اجتاز جلالته القلعة الحدودية جباراً مثل مونتو[4]... فسارع حكامها بحمل الجزية، وبادر الثائرون بالاستسلام خوفاً ورهبة من جبروت ومهابة جلالته... (Gardiner: 1960.p.7).

[3] – الشرادنة: هم مقاتلين من جزيرة سردنيه حاولوا دخول مصر عن طريق البحر فتصدى لهم الفرعون رعمسيس الثاني في سنة حكمه الثانية وانتصر عليهم وأدخلهم فيما بعد في الجيش وفي حرسه الخاص : انظر عيد مرعي: موجز تاريخ مصر، ص 214.

[4] – مونتو: هو أله الشمس في الدولة المصرية القديمة وقد عبد في طيبة وكان من ألهه العالم السفلي وأله الحرب وقد رسم على شكل إنسان برأس طير: انظر توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب أسيا، ص 281.

ويكمل النقش الحديث عن وصول الفرعون إلى الجنوب من قادش.. " وكان جلالته خلال حملته الثانية المظفّرة في زاهي وكان أفراد الجيش النشيط أحياء وبصحة جيدة، خيم جلالته على المرتفعات جنوب قادش وعندما ظهر جلالته كشروق رع، كان يحمل أسلحة والده مونتو... (توفيق، 1985، ص 281).

أما مسير الجيش الحثي فلا توجد معلومات حول تحركه، وربما كان ذلك بشكل مقصود لأن الملك الحثي أراد أن يفاجئ غريمه المصري وذلك بإخفاء وعدم إظهار تحرك قواته، لكن من المحتمل أن الجيش الحثي قد قسم إلى وحدات صغيرة ووضع لها مكان محدد للتجمع وهو شمال مدينة قادش مما يدلل على ذلك وصول الجيش الحثي للمكان المحدد ولم يستطع الفرعون اكتشاف ذلك، فكان يظنه أنه ما يزال بعيداً عند حلب، ولو كان الجيش الحثي قد تحرك كتلة واحدة، كان من المؤكد أن الفرعون سيعرف بذلك التحرك نظراً لضخامة الجيش الحثي وكثرة عرباته الثقيلة.

4- أحداث معركة قادش: جاء في النص المصري عن أحداث معركة قادش أنه "... عندما زحف جلالته باتجاه الشمال وأصبح جلالته باتجاه الشمال وأصبح جلالته جنوب مدينة شبطونة. [5] قدم إليه اثنان من الشاسو وقالا لجلالته: أرسلنا إخواننا من أكابر القبيلة التابعة للأمير الحثي المهزوم لنقول لجلالته: نرغب أن نكون أتباع فرعون له الحياة والفلاح والصحة_ ونريد أن نهرب من الأمير الحثي المهزوم، وأن الأمير الحثي موجود الآن في حلب ....، أنه يخشى أن يتجه إلى فرعون نحو الجنوب...(توفيق، 1985، ص 281) في الحقيقة أن الملك الحثي هو من أرسل الجاسوسَين من الشاسو [6] اللّذين افتعلا أنهما وقعا في أسر الفرعون وأبلغاه معلومات خاطئة عن أماكن تواجد الملك الحثي، وهنا من المستغرب أن الفرعون صدق ما قالاه دون أن يتأكد من خلال إرساله لفرقة كشافته لكي تستطلع أماكن تواجد العدو، وهنا لا بد من مقارنة أداء سلاح الكشافة المصري في معركتي مجدو عام 1468 قبل الميلاد وقادش، ففي معركة مجدو وقبل اجتياز تحوتمس الثالث Tuthmosis III(1470 . 1436 ق.م) للطرق المؤدية إلى حصن مجدو جاءته معلومات مؤكدة من قبل فرقة الكشافة المصرية وبناء على تقريرها اتخذ الفرعون أنسب الطرق لمسيرة جيشه وكان طريقاً خالي من العدو والكمائن، وبناءً على ذلك تحركت القوات المصرية باتجاه مجدو. أما في معركة قادش فإن تحرك القوات المصرية كان نتيجة لما قاله الجاسوسان اللذين أرسلهما الملك الحثي، وبذلك سقط رعمسيس الثاني بالمصيدة التي أعدت له بعكس تحوتمس الثالث الذي فاجأ العدو، ولم يقع في الكمائن التي أُعدّت له، أما من ناحية تحرك القوات فإن الفرعون تحوتمس في معركة مجدو تحرك على رأس قواته، ولم يغامر بالاقتراب من معسكر العدو إلاّ بعد أن تجمعت كل فرق الجيش المصري والتفت حول حصن مجدو ثم بادر الفرعون بالهجوم جاعلاً زمام المبادرة بيده متحكماً بمجريات المعركة، أما في معركة قادش حصل العكس فإن الفرعون رعمسيس الثاني اندفع على رأس فرقة أمون وغامر بالاقتراب من حصن قادش في وقت كانت ما تزال بقية فرق الجيش بعيدة عن الحصن، فلم ينتظر حتى تتجمع جيوشه وتهاجم ككتلة واحدة، وبذلك أعطى فرصة للعدو لكي يباغته بالهجوم، معطياً للملك الحثي زمام المبادرة والتحكم بمجريات المعركة.

من المستغرب أيضاً أن لا يعرف رعمسيس الثاني أن قبائل الشاسو تتحاز لمن يدفع لها وهي مشهورة بعدائها لمصر، فمن المفروض أن يتبين صحة ما أورده جاسوسا الشاسو قبل أن يندفع بقواته ويباعد بين فرق جيشه. لقد كان عامل المصادفة هو من أنقذ الفرعون من الوقوع في الأسر لأن اكتشاف أماكن تواجد العدو الحثي لم يأتِ من فرقة الكشافة المصرية ولكن وقوع جنديين

[5] - شبطونة: إحدى مدن بلاد الشام التي كانت متحالفة مع الحثيين وتقع جنوب مدينة قادش على تماس ما بين المناطق التابعة لمصر والمناطق التابعة للحثيين، وكان من المفروض أن تتجمع فيها الجيوش المصرية الأربعة ثم تتابع زحفها نحو الشمال إلى حصن قادش، انظر: يان أسمان: مصر القديمة، ص 287.

[6] - الشاسو: قبائل بدوية كانت تتنقل في مناطق الرعي في أطراف بادية الشام وتقدم خدمات للقوافل التجارية العابرة، كما وكانت تقوم بنهبها أحياناً، ورد ذكرها في سبع رسائل من رسائل العمارنة، أنظر، إسماعيل، فاروق: مرسلات العمارنة الدولية، ص119.

حثيين أسيرين من فرقة الاستطلاع في قبضة حرس الفرعون هو من فضح تمركز القوات الحثية الحقيقي، فلو لم يقع هذان الجنديّان بالأسر لبقي الفرعون مخدوعاً ومتابعاً تقدمه حتى يصطدم بالكمائن المعدة له من قبل الملك الحثي ويأسره وينهي المعركة قبل أن تبدأ ونتيجة للتعذيب والضرب بدون رحمة للجنديين الحثيين اعترفا بمكان الملك الحثي(أدولف وهرمان: د ت. ص 612)، فجاء في النص حول ذلك ... وكان جلالته متربعاً على عرش على الضفة الغربية لنهر العاصي عندما جاءت إليه سرية من حرسه الخاص تقود أسيرين من (فرقة) الاستطلاع الحثية ويسأل جلالته "من أنتما؟ فأجابا أرسلنا الأمير الحثي لنستطلع مكان وجود جلالتكم (أسمان: 2005، ص 287).

وأجاب جلالته وأين هو، الأمير الحثي المهزوم؟ لقد سمعت خبراً يقول أنه موجود في حلب فأجابا تأمل! لقد اتخذ الأمير الحثي المهزوم مواقعه مع كافة البلدان التي اصطحبها معه بالقوة من جميع المناطق الواقعة على حدود الدولة الحثية وجميع البلدان ومعه محاربون وعربات حربية تحمل أعلامها ويفوق عدد الجميع رمال شاطئ البحر، انظر! إنهم متأهبون للقتال خلف قادش القديمة..."(توفيق: 1985. ص 282).

ونتيجة لهذه التطورات دعا رعمسيس أركان حربه لعقد اجتماع، فاستدعى جلالته الأشراف، وتلا عليهم كل كلمة قالها له الأسيران وعقّب جلالته على ذلك بقوله "انظروا هذا الأسلوب الذي أتى به قادة العساكر والحكام ...أتوا إليّ وقالوا للفرعون: الأمير الحثي المهزوم في حلب لقد هرب أمام جلالته عندما بلغه نبأ قدومه، وهكذا قالوا يوماً لجلالته... انظروا! ولكن الآن وفي هذه اللحظة بالذات بلغني أنباء من أسيرين للأمير الحثي المهزوم، إن أمير البلاد الحثية المهزوم مختبئٌ مع (جيوش) بلدان بعدد لا تحصى وهي معه، أناس وأحصنة بأعداد لا تحصى كالرمال، إنهم الآن خلف قادش الخائنة، ودون أن يعلم ذلك قواد العساكر والحكام الذين تخضع لهم بلاد فرعون (ادولف وهرمان: د ت . ص 611) وأجابه الأشراف، الذين كانوا بين يديه" إنه خطأٌ كبير، ارتكبه قواد العساكر وحكام فرعون له الحياة والفلاح والصحة_ إن أمير البلاد الحثية المهزوم كان هناك، حيث كان الملك لأنهم نقلوا لعظمتة يومياً التقرير..." (توفيق :1985ص 283).

ولتدارك الموقف طلب رعمسيس من وزيره الإسراع لموافاته بفرقتي بتاح وست إلى المكان الذي كان جلالته قد أقام فيه معسكره، لكن الهجوم الحثي المفاجئ كان الأسرع، فجاء في النص المصري للمعركة "... انظروا وعندما كان جلالته في حديثه مع أشرافه، أتى أمير البلاد الحثية المهزوم ومعه مشاته وعربات القتال عبر القناة جنوب قادش وهجم على جيش جلالته وهو في طريقه دون أن يعلم بذلك وهنا تخاذلت أمامه عساكر وعربات قتال جلالته واتجه إلى الشمال حيث كان جلالته، وطوق جيش أمير البلاد الحثية المهزوم حرس جلالته الذي كان عنده..."(توفيق :1985ص 283).

لقد كان الهجوم الحثي كالصاعقة، حيث هاجم فرقة رع المتقدمة وشطرها نصفين ثم اتجهت العربات الحثية المهاجمة نحو الشمال لتخترق فرقة أمون التي أصيبت هي الأخرى بالذهول لشدة الكارثة. وتبعثرت وطُوق الحرس الخاص للفرعون وأصبح

من الواضح أن الخسارة آتية لا محالة وأن الملك الحثي يمسك بزمام الأمور، وقد أحسن التدبير وسيطر على الموقف من اللحظة الأولى من المعركة وجاء في النص المصري للمعركة ما يؤكد هول الكارثة للهجوم الحثي الصاعق "... بدأ جلالته يعدو بفرسه للأمام وكان لوحده ولا أحد معه ونظر جلالته ليجد 2500 مركبة تطوقه من كافة أبطال خاتي... وبدأت فرق المشاة الخاصة بي تعدو هرباً منهم ولم يقف معي واحد.. (Gardiner: 1960.p.9).

ويكمل النص المصري ما حدث في المعركة بعد ذلك، فعندما أصبح الفرعون وحيداً في أرض المعركة استنجد بالإله آمون وتضرع له لكي ينقذه من هذه المحنة ويذكره بما قدمه له من إنجازات "... ألم أصنع لك العديد من النصب، ألم أملأ معبدك بالغنائم... لقد

قدمت لك كل الأراضي كهبات، لقد ضحيت لأجلك بعشرات الآلاف من القطعان وبنيت لك ومن أجلك البوابات الضخمة العظيمة.... دعوت لك أبي أمون عندما كنت في وسط الصعاب ... وكل البلاد الأجنبية اتحدت وتجمعت ضدي، وأنا وحدي..."(Gardiner: 1960.p.9).

ونتيجة لهذا التوسل لم يترك الإله آمون رعمسيس الثاني، فاستجاب لندائه حيث جاء في النص المصري تلبية الإله آمون لنجدة الفرعون... "وجدت آمون قد جاء عندما دعوته ومد لي يده بالعون فشعرت بالسعادة" لينطلق الفرعون بكل بسالة لمهاجمة أعدائه ويقلب نصرهم إلى هزيمة، فيهرب منه جنود الأعداء خوفاً على حياتهم، فجاء في النص المصري قلوبهم كانت ترتعد مرتبكة ولم يكونوا قادرين على التسديد، خوفهم مني جعلهم يقفزون إلى الماء.. (Gardiner .1960. P.10).

ومن الملاحظ على النقوش التي خلدت معركة قادش المبالغة عندما تحدثت عن تصدي الفرعون لوحده للجموع الحثية وتحويل نصرهم لخسارة، ولكن في الحقيقة أن صمود الفرعون واستبساله في القتال كان عاملاً من العوامل التي حالت دون انتصار الجيش الحثي، أما العامل الآخر والأهم هو: وصول فرقة من ساحل أمورو[7] لنجدة الفرعون حيث التحمت مباشرة في المعركة وبذلك خففت الضغط عن الجيش المصري، وضربت الجناح الأيسر لفرقة العربات الحثية وتولى الفرعون ومن معه الجانب الأيمن، وبذلك عاد التكافؤ إلى أرض المعركة، وأمام استبسال الفرعون تراجعت الفرقة الحثية إلى الجنوب لتعيد تنظيم صفوفها لكي تعاود الهجوم من جديد لكن الفرعون فوت عليهم تلك الفرصة لأنه لم يمنحهم الوقت لتنظيم صفوفهم لأنه لاحقهم فأجبرهم على التقهقر إلى الخلف حتى بلغوا شاطئ النهر من حيث أتو، وعندما أحس الملك الحثي أن المعركة ستخرج من يده، أرسل القافلة الثانية من عرباته لنجدة القافلة الأولى لكنها لم تفلح لثبات الفرعون ومن معه، وتفاجأ الملك الحثي عندما بدأ يشاهد العربات الحثية قادمة باتجاهه مهزمة، وفي أعقابها القوات المصرية ومن شدة خوفهم رموا أنفسهم في النهر متدافعين أملاً بالنجاة، حتى أمير حلب الحثي ريمزريما كان من بين الفارين، وقد صورته النقوش المصرية وهو مقلوب على عقبه من قبل أعوانه لإفراغ ما بجوفه من ماء (Lindsey,J.2016.234).

تحدث النص المصري عن تصدي الفرعون للقافلة الثانية من فوج العربات الحثية فجاء فيه "... وقف ينظر للخلف مرتعداً من الخوف (ملك حثي) بعد ذلك أمر العديد من القواد أن يحضروا مع مركباتهم... وكان عدد المركبات 1000 نزلوا مباشرة إلى وسط النار، وعمدت إليهم مثل مونتو... قمت بذبحهم في أمكانهم. ... "(Gardiner: 1960.p.10).

بعد ذلك بدأت مجريات المعركة تسير لصالح الفرعون وخاصة بعد وصول فرقة بتاح إلى أرض المعركة التي تفاجئت من إنجاز الفرعون، ثم عند الغروب تصل فرقة ست، فأعاد الفرعون هيكلة قواته وجمع غنائمه وأحصى خسائره التي كانت كبيرة. لكن هناك فرقتين من فرقه ما تزال بكامل عدتها ولم تمس بسوء وهذا بدوره حسن الموقف القتالي للفرعون، وبالمقابل فإن القوات الحثية قد تأثر فيها سلاح المركبات وأصيب بخسائر فادحة، أما فرقتي المشاة الحثية ما تزال سليمة لأنها لم تشترك في اليوم الأول للمعركة، وهذا ما عزز أيضاً الموقف القتالي للملك الحثي الذي شرع بإحصاء خسائره وكانت كبيرة وخاصة على مستوى القادة لأنه فقد اثنين من أخوته في الهجوم الأول على الجيش المصري وعدد من قادة الجيش(كتشن:1987، ص 92). وعاد كل من الفريقين لتهيئة قواته لصباح اليوم التالي، فذكرت النصوص المصرية أحداث اليوم الثاني بكثير من المبالغة حيث جاء فيها: "... لماّ انفلق الصبح واصلت الحرب، وكنت مستعداً للمعركة مثل الثور اليقظ والمتأهب للنزال، وقد ظهرت عليهم وكأني مونتو، معي محاربون أقوياء،

[7] - الفرقة الآمورية التي جاءت لنجدة الفرعون كانت بقيادة ضباط مصريين تركهم رعمسيس الثاني خلال حملته الأولى التي وصل بها إلى بيروت، لتصل عند اللحظات الحاسمة من المعركة لكي تقلب نتائجها: انظر: Gardiner 1960,p6،.

وقد اخترقت وسط المعمعة مثل الصقر عند انقضاضه على الفريسة.... وأنا فكنت مثل رع عندما يشرق في الصباح، فكانت أشعتي تحرق أوصال العدو، ... خذوا حذركم، احمعوا أنفسكم... فإذا اقترب منه أحذ فإنّ لهب النار يمتد إليه ويحرقه...(Christion.J.1999.p.13). في الواقع حسب النص المصري فإن الفرعون هو من بدأ بالهجوم في اليوم الثاني للمعركة مستغلاً سلاح العربات لديه الذي لم يصب بخسائر كبيرة على فرقتي المشاة الحثية لكن كثرة عدد المشاة في الجيش الحثي وثباتهم وتنظمهم أفسد على الفرعون إحراز نصر مؤزر وإجبارهم على التقهقر، وبالتالي القوات المصرية كانت عاجزة عن ضعضعة الصفوف الحثية المتراصة والمنتظمة وجعلها تنسحب، وبنفس الوقت لم تستطع القوات الحثية رغم كثرة عددها رد الهجوم المصري وعرباته إلى أعقابهم، فانفصل الجيشان دون أن يحرز أحدهما نصراً على الآخر، وهذا ما جعل العاهل الحثي يلتفت للطرق الدبلوماسية عله يحرز تقدماً عجز عنه في ساحات القتال وخاصة أن العاهل الحثي مورواتالي قد اشتبك سابقاً مع الجيوش المصرية بزمن سيتي الأول(I Seti 1307.1291ق. م)، وخسر أمامه عسكرياً لكن خبرته الدبلوماسية جعلته ورغم خسارته يوقع صلحاً مع الفرعون سيتي الأول يتضمن اعتراف الطرفين بالأمر الواقع فأراد العاهل الحثي أن يعيد الكرة، لذلك بادر هو في طلب الصلح من الفرعون رعمسيس الثاني، فبعث رسالة إليه يحمل مقترحات الصلح على أساس الاعتراف بالأمر الواقع. أما النصوص المصرية للمعركة فقد اعتبرت أن طلب الصلح من قبل الملك الحثي اعتراف بالهزيمة فجاء فيها "... هنا بعث رئيس خاتي رسول لجلالته يمجد اسم جلالته وكانت الرسالة تبدأ بالتحيات والتبجيل كإله ، الثوار القوي _ المحب للحقيقة والصدق، الملك الذي يحمي جيشه بقوة ساعده جدار يحمي جنوده في يوم المعركة ... عبدك وخادمك يتكلم ويقول أنك ابن رع الذي ولد من جسده، لقد أعطاك كل البلاد والأراضي مجتمعة في مكان واحد وأرض خاتي لك وملكك وشعبها خدمك وعبيدك وأنهم تحت قدميك...، ولم تأخذك رأفة بهم؟ انظر إلى نفسك بالأمس كيف قتلت منهم مئات الألوفو لم تترك لهم وريثاً لا تكن قاسياً بتعاملك معهم أيها الملك المنتصر. السلام أفضل من القتال، أعطنا هدنة لنتنفس..."

.(Gardiner: 1960.p.14)

يتضح من خلال النص السابق ايضاً المبالغة والتضخيم لأنه من غير المعقول أن العاهل الحثي يعترف أنه عبد وخادم للفرعون و يقول أنّ أرض خاتي لك وملكك وشعبها خدمك وعبيدك وأنهم تحت قدميك.

قبل أن يبادر الفرعون بالرد على الطلب الحثي جمع مستشاريه وأركان حربه وعرض عليهم طلب الملك الحثي فوجدهم ميالين للصلح حيث قالوا:"... وقالوا في نفس واحد: السلام شيء عظيم، يا مولانا الملك، لا يوجد من يعارض التسوية إذا أبرمتها أنت، فمنذا الذي يجرؤ على الوقوف في طريقك يوم غضبك؟..." (Gardiner: 1960.p.13).

استخلص الفرعون من خلال تلك المشاورات أن أركان حربه يميلون للسلام وليست لديهم أي رغبة لمتابعة القتال، فاضطر إلى الموافقة وخاصة لأنه كان يعرف أنه لا يستطيع في هذه الظروف مهاجمة قادش التي جاء لاحتلالها فتخلى عنها مع أمورو، لكنه احتفظ لنفسه بحق العودة ولم يوقع أي اتفاق مع العاهل الحثي حول أمورو، وقادش ولكنه اكتفى فقط بالموافقة على وقف القتال مع الحثيين، وعاد الجيش المصري جنوباً، فوصل إلى مصر في بداية السنة السادسة من حكم الفرعون في الشهر الرابع .(Gardiner: 1960.p.14)

أما الملك الحثي من جهته لما يغادر شمالاً عائداً إلى بلاده بل أحكم قبضته على قادش ثم تحرك غرباً لاستعادة أمورو، وتمّ له ذلك وعزل بينتشينا وأحلّ مكانه ملكاً جديداً موالياً له وهو شابيلي (أحمد: 1982، ص 244)، وهكذا استطاع العاهل الحثي أن يحقق هدفه من تلك الحرب لأنه جاء لاستعادة أمورو ومعاقبة ملكها وحماية قادش وكان له ذلك، ولم يكتف بتلك المكاسب بل زحف على

رأس قواته جنوباً مهدداً المركز المصري في كوميدي، ثم اتجه شرقاً لاحتلال دمشق ومنطقة أوبا ونتيجة لاقتراب موعد الأعياد في خيتا كان عليه مغادرة الجبهة السورية للعودة للمشاركة بتلك الاحتفالات وشكر الآلهة التي وهبته الانتصار تاركاً أخاه حاتوشيلي لتنظيم شؤون أوبا(أحمد: 1963، ص 352).

5-ما بعد قادش: إن انسحاب الفرعون في اليوم الثاني للمعركة أعطى الفرصة للعاهل الحثي أن يتوسع في وسط وجنوب سورية حتى دمشق دون أن يلاقي أية مقاومة مصرية، ويمكن تفسير ذلك أن الفرعون أراد إعادة تنظيم وترميم جيشه بعد قادش، لكن السكوت المصري قد فسر خطأ عند أمراء كنعان الذين ظنُّوا أن الفرعون قد أصبح ضعيفاً لذلك أحجموا عن دفع الجزية، (عبد الله: 2004، ص 606)، فعمت الفوضى والاضطرابات مناطق النفوذ المصرية في سورية، ولتفاقم هذه الأوضاع عادت القوات المصرية مجدداً لتفرض هيبتها، فقاد الفرعون حملة في عام 1282 ق. م، ووصل خلالها إلى غزة وأجبرهما على دفع الجزية من جديد، وهرب الشاسو من أمام جحافله ليتواروا في الصحراء من حيث أتوا، وقبل عودته إلى مصر يعيد منطقة أوبا إلى نفوذه، هذه الانتصارات جعلته يفكر بحملة أخرى في الصيف القادم وخاصة أن الأوضاع داخل الدولة الحثية كانت مضطربة نتيجة للصراع على السلطة ما بين حاتوشيلي الثالث وابن أخيه أورخي تيشوب الذي جرد الجيوش الحثية للقضاء على عمه(كتشن ،1997، ص 111). فاستغل الفرعون تلك الأوضاع ليعاود السيطرة على أمورو ويحتل قادش التي فشل في ضمها في حملة السنة الخامسة من حكمه، فعمل الفرعون على عزل أمورو وقادش عن باقي المناطق الحثية في شمال سورية تمهيداً لاحتلالها، الرد الحثي كان من قبل ملك كركميش نائب الملك الحثي الذي لم يستطيع التصدي للزحف المصري عسكرياً ولكنه كان يثير ويؤلب الإمارات في سورية على الثورة على النفوذ المصري بعد عودة الفرعون إلى مصر، فتعود بولائها للحثيين، فيرد الفرعون بحملة جديدة داخل الأراضي السورية ليفرض سيطرته على تلك الإمارات المتقلبة الولاء، ولكن عند عودته تعود تلك الأمارات من جديد على التمرد والانضمام تحت الولاء الحثي، وهذا

ما جعل الفرعون على يقين أنّه لا يمكن الحفاظ على استقرار الولاء في تلك الأمارات ما دام شمال سورية تحت النفوذ الحثي، فاقتنع بالقبول بالسيطرة على المستعمرات المصرية التقليدية ذات الولاء لمصر دون التمدد في وسط وشمال سورية(كتشن،1997، ص103)، ومن المحتمل أنه لذلك عاد الهدوء للجبهة السورية لأن الدولة الحثية كان لها مشاكلها والفرعون المصري قد أرهقته تلك الثورات التي كانت تكلف الخزينة المصرية الأموال لإخمادها فتوصل كلٌّ من طرفي الصراع من عدم الجدوى في تجدد القتال فيما بينهما.

أهم النتائج التي تمخضت عنها المعركة:

1- كانت وما زالت معركة قادش مثار للجدل بين المؤرخين لتحديد هوية من المنتصر فيها فقد تضاربت الآراء حول ذلك، فالنصوص المصرية الهيروغليفية تؤكد انتصار الفرعون رعمسيس أما النصوص الحثية فتأكد من جانبها انتصار الجيوش الحثية بقيادة مواوتالي، وحسب رأي بعض أصحاب وجهة النظر المؤيدة لانتصار الحثيين أمثال الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور(أبو المحاسن: 1984،ص189). يمكننا أن نتبين من المنتصر في تلك المعركة من خلال الأحداث التي جاءت بعدها والتي تصب في مصلحة النصوص الحثية، نستنتج ذلك من خلال تحليل النصوص المصرية التي ذكرت تفاصيل المعركة مع العلم أنها لا تخلو من المبالغة، ورغم ذلك يمكننا استخلاص بعض النقاط التي تبين أن قادش لم تكن نصراً مدوياً كما وصفتها النقوش المصرية بل كانت انسحاب يحفظ ماء الوجه للفرعون وأهم تلك النقاط:

أ- لقد ذكر رعمسيس في تقريره عن المعركة أن الحثيين استخدموا الجاسوسية العسكرية في تلك المعركة، وعلى ما يبدو أنهم نجحوا بخداع الفرعون وإقناعه أن قواتهم ما تزال بعيدة بالقرب من حلب، وأن الملك الحثي يخشى المواجهة، وهذا بدوره جعل

الفرعون يغير خطة هجومه على قادش ويسارع لاحتلالها ظناً منه أنها خالية من العدو الذي كان يتربص ويراقب تحركات الفرعون من شمال مدينة قادش ويعد له الكمائن، وبذلك باعدت المسافات بين الفرعون وبقية فرق جيشه، فكان صيداً سهلاً للملك الحثي.

ب-وجود رعمسيس في أرض كان يحسبها تابعة لنفوذه والحقيقة أن أمرائها وسكانها كانوا من المؤيدين للملك الحثي ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك ارتباطها بالمعاهدات الملزمة الموقعة مع المملكة الحثية وما يفسر ذلك أنه رغم ضخامة الجيش الحثي المتمركز شمال قادش كانت الأنباء تصل للفرعون من قبل قادته العسكريين أن العدو بعيد بالقرب من حلب، حيث استطاع سكان المنطقة أن يخفوا تلك الحقيقة ولم يسربوا أخباراً عن الموقع الحقيقي للمعسكر الحثي، وبذلك يكون الفرعون في عزلة تامة في بقاع اعتبرها أرضه، وهي بالواقع تخدم وموالية لعدوه ملك الحثيين، أو ربما كان للملك الآموري بينتشينا دورٌ في إخفاء تحرك الجيش الحثي رغم ولائه لمصر وذلك تطبيقاً لإحدى بنود المعاهدة الموقعة مع الحثيين بزمن والده دوبي تيشوب والتي جاء فيها ".... أن ترسل رجلاً إلى ذلك العدد ليحذره [مايلي: إن جنود مشاة وعربات ختي الحربية قادمون الآن باتجاهك، فاستعد تكون قد حنثت القسم..." (جيهان :2009، ص20) فأراد بينتشينا أن يحفظ لنفسه خطة الرجعة للحثيين ويخدع الملك الحثي القادم إلى سورية لتأديبه لانحيازه لمصر، بإيهامه أنه ما زال ملتزماً بمعاهدات أسلافه مع الحثيين، وهذه السياسة سار عليها جده عزيرو 1347.1314 ق م من قبل فكان يخدم سيدين بوقت واحد الفرعون المصري والملك الحثي. وما يفسر ذلك أن بينتشينا رغم عزلة عن ملكه بعد معركة قادش وأسره، لم يعامل كأسير ومسبب لحرب كانت خسائرها فادحة للحثيين بل عومل باحترام وأحيط بالرعاية من قبل حاتوشيلي شقيق الملك الحثي وأُسكن بمدينة خاكميش (إحدى مدن الدولة الحثية القديمة والتي كانت مقراً لحاتوشيلي) وزوجه من أميرة حثية(عبد الله، 2004، ص548). وهذه المعاملة الحسنة ربما تكون نتيجة لمساهمته في إخفاء تحركات القوات الحثية عن الفرعون.

ت-اعتراف رعمسيس بالهجوم الحثي المفاجئ على معسكره وسحقه لقواته(توفيق: 1985، ص 285.41)، ولا شك أن السرعة الخاطفة التي انقضَّ بها الجيش الحثي على معسكر الفرعون قد أربكه ودب الخوف في نفوس القوات المصرية التي تبعثرت وهرب مقاتليها بعد أن قتل منهم من قتل ووقع بالأسر قسم كبير ليجد الفرعون نفسه وحيداً بالمعركة وقد طوّق بعربات الأعداء، فيلوم جنوده على الفرار ويأمرهم بالثبات "... ورفعت صوتي منادياً جيشي قائلاً "قفوا ثابتين صامدين.... إني وحدي أقف من أجل أمون... كم هي جبانة قلوبكم لا يوجد من بينكم من يستحق الثقة...." (Gardiner: 1960.p.11).

وبذلك يكون الملك الحثي قاد الفرعون إلى منطقة موالية له ومن ثم خدعه وأجبره على التقدم دون أن ينتظر بقية فرقه، وفي المكان والزمان المناسب الملك الحثي بدأ بالهجوم وكان كالصاعقة ففرت من أمامه الجحافل المصرية وهذا يدلل على الانتصار الحثي، فاختيار المكان والزمان عاملان من عوامل النصر.

ث-بعد المعركة تمّ عزل بينتشينا ملك أمور الذي كان موالياً لمصر ونصب حاكم آخر موالياً للملك الحثي بدلاً عنه على عرش أمورو، ولو كان رعمسيس هو المنتصر كما كان يدعي لبقي حليفه الآموري على عرش قادش، وبالتالي يقودنا ذلك إلى الاعتقاد أن الملك الحثي تحكم بمنطقة أمورو وأصبحت تحت سيطرته بعد أن كانت قبل المعركة تخضع للنفوذ المصري.

ج- ما يؤكد الانتصار الحثي النقش الذي تركه حاتوشيلي الثالث 1273-1251 ق م ، ويتحدث من خلاله عن حرب أخيه مواتالي مع رعمسيس الثاني ونستدل من خلاله أن القوات الحثية تابعت زحفها جنوباً بعد المعركة حتى وصلت إلى منطقة

أوبا [8] على مشارف دمشق وبقي حاتوشيلي في تلك المنطقة لإدارتها بتكليف من شقيقه مواواتالي قائد المعركة، ولو كان النصر لمصر كما ادعى رعمسيس في نقوشه لكان التحرك الحثي نحو الشمال وليس نحو الجنوب من سورية في مناطق كلها تابعة للنفوذ المصري منذ أيام سيتي الأول. فجاء في النقش الحثي حول ذلك التحرك "... في الوقت الذي كان مواتلليس يحارب ملك أرض مصر وبلاد أمورو وعندما هَزم إذا ذاك ملك أرض مصر وبلاد أمورو عاد إلى بلاد أوبا" وعندما هَزم أخي موتلليس بلاد أبا عاد إلى بلاد ختي ولكنه تركني في بلاد أوبا..." (أحمد:1963، ص 252)، ومن المحتمل أن تكون هذه الحملة لتأديب بعض الحكام حول دمشق لانضمامهم لمصر في معركة قادش.

ح- بعد توقيع معاهدة الصلح المصرية الحثية ساد السلام، ثم عادت العلاقات إلى التوتر بسبب إصرار الفرعون على عدم تسليم اورخي تيشوب Ourshi-tesoup 1280-1273 ق م الملك الحثي المخلوع اللاجئ إلى البلاط المصري هرباً من عمه حاتوشيلي الثالث الذي كان يعتبر بقاء ابن أخيه في مصر يسبب له القلق فكانت رسائله إلى رعمسيس تحوي تهديدات مبطنة، كقيامه بعمل عسكري ضد مصر، فجاء في أحد الرسائل المرسلة من حاتوشيلي الثالث إلى رعمسيس

"هل نسيت أيام العداوة مع بلاد الحثيين" (ترايفور: 2006، ص 150) وطبعاً المقصود بتلك العداوة معركة قادش وذلك يجعلنا نعتقد أنه لو كان رعمسيس هو المنتصر في تلك المعركة لما ذكره حاتوشيلي الثالث بتلك العداوة، وذكرها من قبل حاتوشيلي إشارة واضحة للانتصار الحثي في تلك المعركة وأنه سيعيدها ويهدد بقادش جديدة إذا لم يسلم رعمسيس الثاني أورخي تيشوب، فمن غير المعقول أن يهدد العاهل الحثي بقادش جديدة ويكون قد خسر فيها الحثيون.

خ- ويمكن استنتاج الانتصار الحثي في قادش من خلال المعاهدة التي وقعت فيما بعد بين العاهل الحثي تودخاليا الرابع (Toutholia IIII) وملك أمورو شاوش جاموّا والتي أكد الملك الحثي الانتصار على مصر في إحدى بنودها"... فحارب مواواتالي عمّ جلالتي. مع ملك مصر بسبب أسياد أمورو، وهزمه مواواتالي، ودمر بلاد أمورو بقوة السلاح وأخضعها لسلطته، ونصب شاييلي ملكاً على بلاد أمورو" (جيهان: 2009 ص 220).

أما الذين يرجحون الانتصار المصري في معركة قادش كالدكتور محمود عبد الحميد أحمد والدكتور محمد بيومي مهران، فجاء موقفهم نتيجة لبعض الأحداث التي تخللت المعركة وغيرت من نتائجها حسب وجهة نظرهم ومنها.

د- ترك الفرعون لمعسكره المليء بالغنائم والتوجه جنوباً ليصبح على مقربة ممن تبقى من فرقة رع، لأن فرقة أمون تصدت للصدمة الأولى وتبعثرت ولا يمكن بها إحراز النصر وقد أثبتت الأحداث صوابية هذا الإجراء الذي اتخذه الفرعون والذي يدلل على تكتيك عسكري (محمد، بيومي: 1989،ص20)، فترك المعسكر الملكي جعل فرسان العربات الحثية يلتفون إلى المعسكر لنهبه فاقدين التركيز على الفرعون الذي استطاع كسب الوقت لالتقاط الأنفاس بعد الهجوم الحثي الصاعق.

ذ- وصول فرقة مقاتلة لجانب الفرعون وهي فرقة من المقاتلين الآموريين التي وجدت الفرعون وحيداً فهبت لنجدته واشتبكت بالقتال دون تباطؤ، وهذا بدوره قد حسن الوضع القتالي للفرعون(جيهان: 2009 ص 222)، وأعاد التكافؤ لأرض المعركة.

ر- ثبات واستبسال الفرعون وإقدامه كان العامل الأهم للانتصار، حيث فرّ من وجهه راكبو العربات الحثية وأصبح همهم النجاة بأرواحهم وذكرت النصوص المصرية هلاك بعض القادة الحثيين وتدمير عرباتهم القتالية.

[8] - أوبا : (upu): وهو اسم عرفت به دمشق ومناطقها في رسائل العمارنة أما المصادر الحثية فقد أطلقت عليها اسم بلا أبينا (Abina) وكانت تمتد من الأطراف الشمالية لجبال لبنان الشرقية في الشمال إلى جنوبي جبل العرب حتى شرق نهر الأردن في الجنوب وأطراف سهل البقاع في الغرب وبادية الشام في الشرق : انظر : فاروق اسماعيل : موقف دمشق من النزاع الحثي المصري (القرن الرابع عشر . ق.م) الندوة الدولية دمشق في التاريخ 2006 ، ص 75

.(Gardiner:1960. 23)

ز- طلب الصلح ووقف القتال من الملك الحثي مووتالي اعتبره المصريون اعترافاً بعجزه ودليل على استسلامه وعدم مقدرته على متابعة المعركة.

إن الرأي الأكثر قبولاً حول تحديد هوية المنتصر في معركة قادش، هو عدم إحراز أي من طرفي الصراع نصراً حاسماً على الآخر، وذلك استناداً على الوقت التي توقفت فيه المعركة، فعند وقف القتال كانت الحدود بين الدولتين المتحاربتين قد بقيت في موقعها عند نهر الكلب في فنيقيا، كما كانت قبل بدء المعركة، فلم يكن هناك تقدم أو تراجع لكلا الفريقين المتحاربين، أي بقي الوضع الراهن كما هو، وهذا ما فاوض عليه الملك الحثي ووافق عليه الفرعون المصري، فغادرا أرض المعركة وكلٌ منهما يظنُّ نفسه هو المنتصر فيها.

2- استغل الملك الآشوري حدد نيراري الأول (Adad Nirar I) (1307. 1275 ق.م) انشغال القوات الحثية أثناء معركة قادش ليتوجه بقواته قاصداً أراضي المملكة الميتانية حليفة الحثيين، ويستطيع الملك الأشوري أن يضمها لأملاكه (كتشن: 1997، ص 95.)، وبذلك فقد ت الدولة الحثية أهم حليف لها وأصبحت حدودها الشرقية مفتوحة للخطر الآشوري الذي أصبح يهدد سورية كلها وهذا بدوره ما أقلق العاهل الحثي الذي اعتبر أن كل ما حققه بعد معركة قادش لا يعادل ضياع وسقوط حليفته مملكة حوري . ميتاني تحت الهيمنة الآشورية الذين أصبحوا وجهاً لوجه مع الحثيين.

3 - عودة مملكة أمورو إلى السيطرة الحثية حيث عزل ملكها بيتنشينا لتحالفه مع مصر وعين أحد الموالين للدولة الحثية (عبد الله: 2004، ص 549.)، وسيق ملك أمورو أسيراً وأجبر على الإقامة الجبرية في خاتوشا ليعود لملكه بعد 15 عاماً كحليف قوي للحثيين(مورتكان: 1950، ص 231).

4- تقسيم بلاد الشام بين الإمبراطوريتين الحثية والمصرية، على الشكل التالي:

أ- **الوحدات السكانية الحثية:** تبدأ من الشمال وشملت كركميش ومناطق من وادي الفرات حول أيمار، وحلب ومناطقها وسهول سورية الشمالية، وموكيش وعاصمتها الالأخ، وأوغاريت في الجنوب من موكيش ومناطقها التي تشمل السهول الساحلية وأجزاء من المناطق الجبلية وسيانو وشرق العاصي، وكذلك تضمنت المنطقة الحثية بلاد نوخاشي ونيا وقطنه وتونيب أما أمورو فكان على تماس حيث شكلت الحدود الفاصلة ما بين الإمبراطوريتين لكنها أصبحت ضمن مناطق النفوذ الحثية. (أحمد: 1982، ص252).

ب- الوحدات السكانية المصرية: لقد ضمت مصر لسيطرتها كلاً من جبيل وبيروت وصور وبعض مدن حوران مثل بصرى ودمشق. (عبد الله، 2004،ص549).

ومن الملاحظ أن معاهدة الصلح التي وقعت فيما بعد بين طرفي الصراع لم توضح حدود وسيطرة كل من الدولتين الحثية والمصرية بل اعتبرت أن هناك خط وهمي يفصل ما بين مناطق النفوذ المصرية والحثية يبدأ من الساحل شمالي مدينة جبيل[9] ويمتد باتجاه الشرق عبر منطقة شمالي البقاع بحيث بقيت دمشق تحت السيادة المصرية وعادت أمورو وقادش للنفوذ الحثي (عبد الله، 2004، ص 607). وهذا يدل على تراجع مناطق النفوذ المصرية في سورية مقارنة مع مناطق نفوذها بعد معاهدة الصلح مع الميتانيين فكانت أوغاريت وقادش وأمورو تحت السيطرة المصرية في المعاهدة مع الميتانيين. أما في المعاهدة مع الحثيين فأصبحت تلك المناطق تحت السيطرة الحثية وفقط يسمح للتجار المصريون الولوج بتجارتهم إلى أوغاريت (كتشن:1997ص115).

[9] – جبيل: تقع شمالي بيروت بنحو 30 كم وهي من أكثر المدن التي ذكرت في مراسلات العمارنة أطلق المصريون عليها اسم كونبا (KOPNA) وسماها اليونان بيبلوس (Beblos) ، انظر هبو ارحيم أحمد : تاريخ سورية القديم (بلاد الشام) سورية ، دار الكمة اليمانية ، الطبعة الثانية 1999 م ص 319 .

قبل معاهدة الصلح من شجع الحثيين على التمدد في الأراضي السورية هو اهمال الفراعنة لحكام سورية، فلم تلقَ طلبات النجدة المرسلة من حكام سورية إلى الفرعون أخناتون (أمنحوتب الرابع) آذاناً صاغية ولم يبعث الفرعون فرقة لمساعدة تابعيه من الحكام للتصدي الخطر الحثي، وهذا بدوره شجع الحثيون على متابعة توسعهم في الأراضي السورية، وخاصة بعدما بدأ أمراء بلاد الشام الموالون للفرعون يعلنون الانضمام للحثيين الذين وصلت قواتهم إلى المجرى السفلي لنهر العاصي (منطقة البقاع) دون أن يحرك الفرعون ساكناً، وهذا ما جعل حاكم الالأخ اددنيراري حوالي 1375ق م خليفة ادريمي يبعث خطاباً للفرعون أمنحوتب الرابع يلومه على إحجامه عن عدم إرسال قواته للتصدي للخطر الحثي فجاء في الخطاب ... إن الملك الذي يطلب الوفاء من أتباعه عليه أن يكون وفياً، وإذا كان سيدي... فليتكرم بإرسال رسول من أعضاء مجلسه على رأس حملة عسكرية...."(PRU ; lll. 1955.p34)

ومن الملاحظ على هذه الرسالة شدة اللهجة التي يخاطب بها حاكم الألاخ الفرعون المصري وهذه اللغة في التخاطب لم تكن موجودة في مراسلات العمارنة وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الرسالة السابقة غير صحيحة وخاصة أنها وردت من قبل العالم Nougayrol دون رقم بعكس رسائل أرشيف العمارنة المرقمة، هذه الرسالة بغض النظر عن صحتها لكنها مع غيرها من عشرات الرسائل المرسلة من حكام جبيل وصور وبيروت كان مصيرها الإهمال من قبل الفرعون، وهذا بدوره جعل الممالك السورية تتخذ مواقف متباينة نتيجة لعدم إرسال الفرعون النجدات لمساعدتهم ضد الخطر، لكن بعد معاهدة الصلح أصبح الخط الوهمي الذي يفصل ما بين مناطق النفوذ المصرية والحثية معترف به من قبل الدولتين .

أما النتيجة المباشرة لهذا الصراع، تحوله إلى سلام وصداقة بعد توقيع المعاهدة بين الدولتين. وقد بلغت صداقة الحكومتين الحثية والمصرية مراحل متقدمة من الدعم، حتى حين تعرضت بلاد الحثيين إلى مجاعة بادرت مصر بإرسال سفنها المحملة بالحبوب للتخفيف عن حليفتهم وقع المجاعة (ادولف وهرمان: دت، ص 620).

نهاية التنافس: بعد أن أيقن كلاً من طرفي الصراع أن الحرب فيما بينهما قد أنهكت دولتهما، كان لا بدَّ لهما من البحث عن طرق أخرى تكون أكثر جدوى لتحقيق مصالحهما فكانت معاهدة السلام التي أنهت مرحلة الحروب التي استمرت لأكثر من مئة عام.

وأخيراً يمكننا القول أن معركة قادش كانت من المعارك الفاصلة في تاريخ سورية القديم وذلك للنتائج التي تمخضت عنها وكانت ذات أثر كبير على الممالك السورية ومنها:

1- تميزت سورية بتعدد المراكز السياسية فيها، والذي اعتبر سمة من السمات المميزة لتاريخها، وقد لعبت القوى السياسية الخارجية (الدولة الحثية والإمبراطورية المصرية) دوراً مهماً في تكريس هذه السمة لأن ذلك يخدم مصالحها ويبقيها لفترة أطول تنهب خيرات الممالك السورية فعملت على إثارة الفتن بين الممالك السورية وضمت إليها المراكز الضعيفة وحكمت بعضها بشكل مباشر والآخر بشكل غير مباشر، وربطتها معها بمعاهدات واتفاقيات غير متكافئة.

. (Wiseman : 1953 p59)

2-قسمت سورية بين القوى الخارجية، حيث كانت الأجزاء الشمالية والوسطى تحت الهيمنة الحثية، أما الأجزاء الجنوبية فكانت للنفوذ المصري، وعندما كانت تشعر القوى المهيمنة على سورية بزيادة نفوذ إحدى الممالك السورية كانت تعمل على الإسراع للقضاء على هذه المملكة كي لا تتحول إلى دولة قوية تخرجها من الأراضي السورية، واتبعت تلك القوى وسائل متعددة لمنع زيادة نفوذ أي مملكة كما فعل الحيثيون مع أوجاريت عندما شعروا بزيادة نفوذها قاموا بإقطاع أجزاء تابعة لها مثل سيانو وأعطوها إلى

كركميش التي كانت تحكم من قبل نائبهم في سورية، وجاء ذلك بالوثيقة (17،443) المتضمنة رسالة من الملك الحثي مورشيلي الثاني الضابطة لإنفصال سيانو؛(PRU ; 1v. 1956 p . 76).

3-سيطرة النظام الإقطاعي في سورية حيث كان الملك الحثي الإقطاعي الأكبر وأمراء الشام الموالين ممثلين إقطاعيين له، فساد أسلوب الإقطاع الزراعي على الصعيد الاقتصادي في تلك المرحلة. فاعتبر الملك الحثي نفسه السيد الأول على جميع أمراء النصف الشمالي لبلاد الشام، وأبقى على سلطته الأمراء الذين أعلنوا الولاء له.

4- العامل الخارجي كان من أهم العوامل التي أدت إلى انتكاس مشروع قيام دولة موحدة قوية في سورية القديمة، لأن استتباب الأمن والقضاء على الفوضى الداخلية وقيام سلطة مركزية كانت غالباً مستمدة من ملك آخر وليس من سلطة إلهية كما هي الحال في بلاد الرافدين ومصر، لا يكفي لقيام دولة موحدة وذلك لأن رغبة المدن السورية بقيام الدولة الموحدة كانت تصطدم بمصالح الدول الكبيرة في المنطقة التي كانت تقف حاجزاً أمام تحقيق ممالك المدن السورية لوحدتها، فوقوع سورية بين تلك القوة الطامعة منع قيام وحدتها ولم تترك تلك القوة الخارجية لسورية حرية التحرك نحو التطور السياسي لبلوغ مرحلة الوحدة.

5-كانت سورية بوابة مصر الأمنية، فأي خطر كانت تتعرض له مصر كان دائماً قادماً من الأراضي السورية، فكل الدول التي احتلت مصر كان الطريق المؤدي لاحتلالها عبر الأراضي السورية هذا ما جعل مصر ولأسباب أمنية تحتل سورية لإغلاق منفذ الخطر، وصد الطامعين بمصر في الأراضي السورية قبل أن يصل خطرهم إلى الأراضي المصرية (نقل ساحة الحرب والصراع مع الطامعين بمصر إلى سورية).

6- ازدهار بعض المدن في سورية وخاصة الواقعة تحت النفوذ الحثي كأوغاريت التي أصبحت مدينة مزدهرة على كافة المستويات، نتيجة لاستتباب الأمن وهذا بدوره انعكس على اقتصادها فازدهر وراجت تجارتها.

المراجع:

1. إسماعيل، فاروق.(2010م). مراسلات العمارنة، وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م ، دمشق، ص:898.
2. (2006). موقف دمشق من النزاع الحثي المصري (ق14. ق.م) الندوة الدولية دمشق في التاريخ . ص:112-145
3. الحلو،عبد الله .(2004). سورية القديمة التاريخ العام، من أقدم الأزمة المعروفة حتى أوائل العصر البيزنطي، الطبعة الأولى. ص: 869
4. حاطوم، نور الدين، عاقل، نبيه، وآخرون. (1963). من أعضاء قسم التاريخ جامعة دمشق: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة جامعة دمشق، ص:343
5. جيهان، محمد.(2009). مملكة أمورو في النصوص الأكادية، رسالة ماجستير، جامعة حلب، كلية الآداب، قسم اللغات القديمة، سورية، حلب . ص:225
6. سعد الله، محمد علي .(2005). تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر وسورية القديمة، مركز الإسكندرية للكتاب، الجزء الثاني. ص: 343 .
7. سليمان، توفيق .(1985). دراسات في تاريخ حضارات غرب أسيا القديمة من أقدم العصور حتى عام (1190 ق م ط1، دمشق. ص:236.
8. عثمان،عبد العزيز.(1996). تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر الحديث لبنان، ص:365.
9. عصفور، أبو الحاسن: (1984). معالم تاريخ الشرق الأولى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، دار النهضة العربية للنشر بيروت الطبعة الثالثة. ص:245
10. فخري، أحمد. (1963). دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصر والعراق سورية اليمن . إيران. مختارات من الوثائق التاريخية جامعة القاهرة ط2، المكتبة الأنكلو مصرية. ص:432
11. مرعي، عيد .(2005). موجز تاريخ مصر وحضارتها، مكتبة الخبثي الثقافية، الرياض، ص:232
12-عبدالله، فيصل.(1995 1996). تاريخ الوطن العربي القديم، بلاد الرافدين، منشورات جامعة دمشق.ص:332
12. مهران، محمد بيومي.(1989). مصر والشرق الأدنى القديم، الحضارة المصرية القديمة، ج:1، ص:342
أسمان، يان.(2005). مصر القديمة تاريخ الفراعنة على ضوء علم الدلالة الحديث، ترجمة: حسام عباس الحيدري، منشورات دار الجمل، المانية، ص:432.
13. أرمان، أدولف، ورانكه، هرمان. (د. ت). مصر والحياة المصرية في العصور القديمة: ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، ص:978.
14. برايس، تريفور. (2006). رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، المراسلات الملكية من العصر البرونزي المتأخر، ترجمة، رفعت السيد علي تدقيق: الحسين عمران، دار العلوم القاهرة، ص:248 .
4- قدري، أحمد. (1982). المؤسسة العسكرية المصرية في عهد الإمبراطور(1570- 1087ق.م) ، ترجمة: مختار السويفي، مراجعة الدكتور: محمد جمال الدين مختار، ص:340.

15. كتشن، كنت أ. (1997). فرعون المجد والانتصار رمسيس الثاني، ت: د أحمد زهير أمين، مراجعة: د محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 349.
16. كلينغل، هـ.(1998). تاريخ سورية السياسي 300 ق.م ، ت: سيف الدين ذياب، المتنبي ، دمشق. ص:465.
17. مورتكات، انطوان.(1950). تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير. ص:668.
18. وويلي، ليونارد.(1992). ألالاخ مملكة منسية، ت: فهمي الدالاني، منشورات وزارة الثقافة دمشق. ص: 332.
19. Christion Jacq 1999, Ramses: the Battle of Kadish, F3 p 374
20. Gardiner,A,H., the kadesh inscriptions of Ramesses ll. oxford .1960.
21. Mark,Joshuak J.The Battle of Kadesh. The first peace treaty, London 2012.
22. Moran ,W,L.,(V. Haas-G. Wilhelm) les Letters El Amarna Paris1987 Lindsey juon 2016, The Makings of an Event Encountering The Battle of Kadesh through Time Univesty of Galifornia Berkeley.
23. Nou gyrol,J., PRU lV: Textes Accadiens Des Archives Sud (internationals Archives) Paris 1956.
24. Nou gyrol ,J., PRU lll: Textes Accadiens et Hourrites Des Archives est Ouest et Centrales ,paris 1955.
25. Pritchard,J,B., Ancient Near Eastern Texts Relating to Old Testament Third Edition with Supplement Princeton .New Jersey 1969.
26. Wiseman,D, J, The Alalakh Tablets , London 1953.